المفاهيم الخاطئة في العلاقات الإسلامية ـ المسيحية[1]

د. محمد السماك
الأمين العام للجنة الوطنية الإسلامية المسيحية للحوار

المقاصد
دورية ثقافية

تتألّف هذه المقالة من ثلاثة أقسام، يتناول القسم الأول منها أسباب ودوافع القلق المسيحي في الشرق وعلاقتها بالإسلام؛ ويتناول القسم الثاني النتائج المترتبة عن الهجرة المسيحية على هوية الشرق العربي وعلى مستقبله؛ أما القسم الثالث فيتناول دور المسلمين في تبديد القلق المسيحي وفي تجدد الثقة المتبادلة.

أولًا: في أسباب القلق المسيحي ودوافعه:

في الأساس ليس القلق المسيحي اصطناعيًّا، إنه رد فعل على الأحداث المأساوية التي عصفت بالعديد من الدول العربية التي استهدفت المسيحيين قتلًا وتهجيرًا وسبيًا، وتدميرًا لأماكن عبادتهم، كنائس وأديرة.

إن موجة التطرف والغلو الدينية، أو باسم الدين، بما اتسمت به من عنف، وبما حققته من سيطرة على مساحات واسعة (من العراق وسوريا تحديدًا)، وبما رفعته من شعارات تكفيرية وإلغائية، لم تجابَه بموجة إسلامية معاكسة تتصدى لها بقوة فكريًّا وعمليًّا.

(١) السماك، محمد. المفاهيم الخاطئة في العلاقات الإسلاميّة ـ المسيحيّة، ضمن: **الوثائق الإسلاميّة والعلاقة مع الآخر**. ط١، بيروت: دار المقاصد للنشر، ٢٠٢٤م.

وقد أدى هذا الأمر إلى زيادة الشعور بالإحباط لدى المسيحيين، وإلى زيادة خوفهم على المستقبل والمصير، فكانت الهجرة الواسعة إلى العالم الخارجي، فشكل ذلك ظاهرة لا سابق لها في التاريخ الحديث للعلاقات الإسلامية ـ المسيحية.

فقد تراجعت نسبة المسيحيين في الشرق العربي إلى أكثر من النصف منذ منتصف القرن العشرين حتى اليوم، (وسوف أتناول نتائج هذه الهجرة فيما بعد)، وهذه النسبة مرشحة للمزيد من الاستنزاف إذا استمر تصاعد التطرف الاستعدائي والإلغائي.

هناك عدة أسباب للقلق المسيحي، أهمها تلك التي تتعلق بالمفاهيم الدينية التي ترفع لواءها حركات التطرف الإسلامي التي تعتبرها من ثوابت العقيدة الإسلامية.

المفهوم الأول: تكفير المسيحيين:

تتعمّد بعض الحركات الإسلامية المتطرفة إخراج المسيحيين واليهود من الإيمان استنادًا إلى فهم خاطئ للآية القرآنية التي تقول: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، والآية القرآنية: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]. وذلك من خلال فهم يحتكر الإيمان بالله وبالرسالة المحمدية حصرًا. إن هذا الفهم الخاطئ يُخرج هذه الحركات ذاتها من روح الإسلام ومن جوهر النص القرآني.

فالإسلام هو الاستسلام لله الواحد، وبهذا التحديد فإن الإسلام لا يكون بالإيمان بما جاء به رسول الله محمد ﷺ فقط؛ بل يكون بالإيمان بجميع الرسالات السماوية التي جاء بها جميع الرسل والأنبياء أيضًا، من إبراهيم عليه السلام انتهاء بمحمد عليهم السلام. ولذلك فإن جوهر الإسلام هو الإيمان بهؤلاء الرسل والأنبياء جميعًا، وبالكتب السماوية التي أنزلت إليهم، باعتبارها كتبًا موحى بها من الله، وخاصة الإنجيل والتوراة اللذان يصف القرآن الكريم كلًّا منهما بأنه ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦].

المفهوم الثاني: الذميّة:

عندما استحدث المسلمون هذا المفهوم «الذمية»، لم يكن هناك مفهوم أفضل وأكثر إنصافًا لتنظيم التعايش مع غير المسلمين. أما اليوم فهناك مفهوم المواطنة؛ فالذمية ليست نصًّا قرآنيًّا وليست نظامًا دينيًّا، ولكنها «عقد» مدني توافق عليه (في حينه) طرفان: مسلمون في السلطة ومسيحيون مستأمنون. هذا العقد أسيء إليه وشُوه في العهدين المملوكي والعثماني لأنه جعل من المسيحي مواطنًا من الدرجة الثانية، ولأن المسيحي تعرّض في ظله إلى امتهان كرامته وانتزاع حقوقه. ولذلك فإن الدعوة اليوم إلى هذا المفهوم تعني دعوة إلى العودة إلى تلك التجاوزات اللاإنسانية واللاوطنية واللادينية، ولذلك يَعتبر المسيحيون الذمية إجهازًا على الوطنية وعلى العيش المشترك، وهم على حق في ذلك. إن الذمية مفهوم تجاوزه الزمن، وانتهى كعقد بتخلي المتعاقدَين عنه، وبقيام الدولة الوطنية التي صنعها مسلمون ومسيحيون معًا، ومع تبلور مفهوم المواطنة الذي يساوي بين المواطنين من كل الأديان والمذاهب ومن كل الأعراق والأجناس، تصبح الذمية موضوعًا تاريخيًّا وليس قاعدة دائمة وثابتة. ومن نوافل القول أن تجاوزه ليس تجاوزًا للشرع الإسلامي ولا للعقيدة الإسلامية.

المفهوم الثالث: الصليبية:

في كل مرة تقع مشكلة سياسية يكون المسيحي طرفًا فيها، حزبًا كان أو مرجعًا سياسيًّا أو دينيًّا، يُرفع في وجهه شعار الصليبية، للطعن به وبموقفه، وللإساءة إليه والتشهير به. والواقع هو أن الحملات الصليبية على الشرق لم تكن حملات تبشيرية بالمسيحية؛ بل كانت حملات غربية توسعية تحت شعار الصليب وبحجة تحرير القدس من المسلمين. والدليل على ذلك أن رعايا الكنائس الشرقية ـ وكذلك اليهود ـ كانوا أول ضحايا تلك الحملات، من القسطنطينية (إسطنبول اليوم) حتى القدس ذاتها؛ فقد دمّر الصليبيون كنائس، وقتلوا رهبانًا وكهنة، وأحرقوا بلدات وقرى مسيحية كانت عامرة بأهلها. وأخبرني البابا شنودة، بابا الأقباط الراحل، أن الكنيسة تقدّس راهبات قتلنَ على أيدي الصليبيين.

ولقد أدرك المؤرخون العرب هذه الحقائق مبكرًا، فأطلقوا على تلك الحملات اسم «حملات الفرنجة» لأنهم عرفوا أن مسيحيي الشرق كانوا مع مسلمي الشرق، من ضحايا تلك الحملات.

المفهوم الرابع: الغرب والمسيحية الشرقية:

كذلك، في كل مرة تنشب فيها أزمة في العلاقات العربية مع الولايات المتحدة أو مع أي دولة أوروبية، تُوجَّه الاتهامات إلى المسيحيين العرب بأنهم طابور خامس يستقوي بالعدو الغربي ضد المسلمين والعرب. ومنشأ هذا الخطأ؛ بل الخطيئة، هو اختلاط مفهوم الغرب والمسيحية في أذهان المتطرفين الإسلاميين، بحيث يتصورون أن المسيحية المشرقية هي امتداد للغرب أو أنها رأس حربة له، أو أن المسيحيين الشرقيين هم بقايا الصليبيين الغزاة. يَنقض هذا الفهم أمران: **الأمر الأول**: هو تخلّي الغرب عن مسيحيته وفك ارتباطه الثقافي بالدين، واعتماده العلمانية أساسًا لتنظيم مجتمعاته، لذلك عندما يطرح الغرب نفسه مدافعًا عن حقوق مسيحيي الشرق، فإنه لا يتحرك من منطلق إيماني ديني، ولكن من منطلق استغلالي للدفاع عن مصالحه؛ **أما الأمر الثاني**: فهو وقوف المسيحيين المشرقيين ضد الاستعمار الغربي، وضد الاحتلال الصهيوني، كما تؤكد ذلك الحركات الوطنية التي قادها أو شارك فيها وطنيون مسيحيون في لبنان وسوريا ومصر والعراق والأردن.. وخصوصًا في فلسطين.

المفهوم الخامس: الإيمان والتكفير:

شكّل السكوت على تكفير غير المسلمين أساسًا لتكفير المسلمين أيضًا. وتوسع التكفير ليشمل مسلمين من أهل المذهب الواحد لمجرد اختلاف في الرأي السياسي.. أو حتى الشخصي!!

في الأساس، وصف القرآن الكريم المسيحيين بأوصافٍ إيجابية، وامتدح قساوستهم ورهبانهم. وصاهرهم النبي محمد ﷺ، وتعاقد معهم على قاعدة «لهم ما لنا وعليهم ما علينا»، وحرّم أي اعتداء عليهم أو على كنائسهم أو أديرتهم، وصنفها بيوتًا لله يُرفع فيها اسمه ويسبح له.

ويؤكد ذلك أيضًا العهد النبوي لنصارى نجران، وبعد ذلك العهدة العمَرية لبطريرك القدس. إن احتكار الإيمان وإخراج أهل الأديان والعقائد الدينية الأخرى المختلفة من رحمة الله، يتناقض مع المفهوم الإسلامي للإيمان الذي يتسع برحابة لأهل الكتاب؛ بل إن هذا المفهوم لا يقتصر حُكمًا عليهم وحدهم (أي: على المسيحيين واليهود) ولكنه ربما يتسع لغيرهم أيضًا، إذ إن الله ﷻ أخبرنا في القرآن الكريم أنه ما كان ليحاسب حتى يبعث رسولًا، أي حتى يعرّف الناس إلى طريق الإيمان به من خلال الرسل والأنبياء، وأخبرنا كذلك بأن ثمة أنبياء ورسلًا لم يذكرهم في القرآن الكريم.

إن هذين الأمرين يشرّعان التساؤل: هل البوذية والهندوسية وربما غيرهما من العقائد السابقة للإسلام، بدأت كرسالات سماوية؟ إن مجرد التساؤل يقيم جسورًا من الودّ والاحترام مع أهل هذه العقائد، من ثَمَّ يؤسس لعلاقات تقوم على الاحترام والمحبة والثقة بين المسلمين من جهة والبوذيين والهندوس من جهة ثانية، وهو أمر يستجيب إلى مقتضيات الحياة المشتركة في العديد من دول القارة الآسيوية، ثم إنه لا يتناقض مع الشريعة.

المفهوم السادس: الكرامة الإنسانية:

يحصر المتطرفون حق الكرامة بالإنسان المؤمن بالإسلام وحده، وبمفهومهم الحصري للإسلام، وبذلك يخرجون المسيحيين، أبناء الوطن الواحد، وأبناء الأسرة العربية الواحدة من حق الكرامة. علمًا بأن القرآن الكريم يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]؛ أي: إن الإنسان مكرّم من الله لذاته الإنسانية، وليس لإيمانه بأي دين أو عقيدة. والله استخلف الإنسان (الإنسان بالمطلق) ولم يشترط للاستخلاف أن يكون الإنسان مسلمًا تحديدًا أو مؤمنًا بأي دين أو عقيدة. إن حصر الكرامة بفئة معينة من الناس، هو مفهوم خاطئ لأنه مفهوم احتكاري يتناقض مع المفهوم الإسلامي المنفتح الذي يجعل الكرامة حقًّا للناس جميعًا، فكيف إذا كان هؤلاء الناس من أبناء الوطن الواحد؟

المفهوم السابع: الاختلاف:

يتناقض مفهوم الاختلاف الذي يقول به الإسلام إنه قائم ومستمر بإرادة إلٰهية ولحكمة إلٰهية، مع مفهوم احتكار الحقيقة الذي يقول به المتطرفون والغلاة الذين يعتبرون كل رأي مختلف كفرًا وخروجًا على الدين.

فالاختلاف بين الناس عنصريًّا وثقافيًّا ولغويًّا، دينيًّا ومذهبيًّا وعقائديًّا، هو حقيقة طبيعية، والله وحده يحكم بين الناس يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون، أي: إنه ليس لأي إنسان الحق في النظر في ضمير الآخر للحكم له أو عليه؛ بل إن الحكم في ذلك هو لله وحده؛ وهو حكم مؤجل حتى يوم القيامة بالنص القرآني الواضح.

صحيح أن هناك اختلافًا بين الإسلام والمسيحية في فهم وفي تحديد طبيعة الوحدانية الإلٰهية، بيد أنّ الأمور تغيرت في الأزمنة الحديثة، وهذا فضلًا عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: ٦٢].

وحتى داخل الإسلام ذاته، فرّق الإسلام بين الاختلاف الذي أقرّه ودعا إلى احترامه وإلى تقبّله، وبين الذي نهى عنه وحذر منه، فقال القرآن الكريم: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ولم يقل ولا تختلفوا.

المفهوم الثامن: الشريعة والخلافة:

يُبدي المسيحيون العرب والشرقيون قلقًا كبيرًا من هذين المفهومين المتلازمين «الشريعة والخلافة»؛ لأنهما يضعان غير المسلمين خارج دائرة المواطنة، أو يجعلان منهم مواطنين من الدرجة الثانية، وهم على حق في ذلك. ولكن من حيث المبدأ فإن فرض تطبيق الشريعة الإسلامية على المسيحيين يتناقض مع النص القرآني الذي يقول: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ...﴾ [المائدة: ٤٧]؛ أي: في الإنجيل، ومن لم يحكم بما

أنزل الله فأولئك هم الفاسقون. ولم يقل القرآن الكريم فليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله في القرآن!!.

ثم كيف تُفرض الشريعة على غير أهلها فالإسلام يقول: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] وكيف يُكره المسيحيون على شريعةِ دينٍ فيما يقول هذا الدين نفسه باللااكراهية؟ ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

أما بالنسبة إلى الخلافة فإنها تُفهَم على أن الدعوة إليها هي دعوة لدولة دينية، تطرح المسيحيين جانبًا، والواقع هو أن نظام الخلافة ليس نظامًا قرآنيًّا ولا هو وصية نبوية، وفي الأساس لا دولة دينية كهنوتية في الإسلام، كما قالت وثيقة الأزهر الشريف، فالخلافة نظام تمّ التوافق عليه بعد وفاة النبي ﷺ، ليستقوي الحاكم المسلم بصفته خليفة له.

لقد اختلف صحابة النبي شخصيًّا وقبليًّا وعشائريًّا ـ حتى قبل إيوائه في مرقده الأخير ـ وتمحورت خلافاتهم حول من يتولى السلطة من بعده؟ وكيف؟ وما كان لهم أن يختلفوا لو كان هناك نص بالخلافة، ولقد مات ثلاثة من الخلفاء غيلةً (عمر وعثمان وعلي)، وفجّرت اختلافاتهم الفتنة التي لم تخمد حتى اليوم، ومن بعدهم أصبحت الخلافة «خلافات» تقوم الواحدة على أنقاض الأخرى.

ولإعطاء الإمبراطورية العثمانية بعدًا دينيًّا سُمي السلطان العثماني «خليفة»، وعندما أراد البريطانيون معاقبة الخليفة العثماني لتحالفه مع ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، حاولوا صناعة خليفة آخر في العالم العربي أو في الهند (التي كانت تحت سيطرتهم)، ولما فشلوا، عملوا على إلغاء الخلافة كنظام، إلا أن الإسلام لم يُلغَ وبقي دينًا محفوظًا بإرادة الله وفضله.

هذا يعني أن سقوط نظام الخلافة ليس سقوطًا للإسلام، وأن العودة إلى نظام الخلافة ليس عودة إلى الإسلام، فالإسلام لا يفرض نظامًا سياسيًّا محدّدًا للمسلمين، ولكنه رسالة رب العالمين إلى الناس أجمعين.

ثانيًا: في النتائج المترتبة عن الهجرة المسيحية:

إن ظاهرة الغلو والتطرف التي فجرت القلق المسيحي في الشرق تشكل السبب الرئيس للهجرة المسيحية من الشرق.

فمع الخلل في أسس المواطنة، يأتي التطرف بما هو خروج عن أصول الشريعة والفقه الإسلاميين، وبما هو احتكار للحق وللحقيقة، ليضيف عاملًا أساسيًّا إلى العوامل السياسية والاقتصادية المسبّبة للهجرة التي تعاني من آثارها الخطيرة مجتمعاتنا الوطنية. وهذه الهجرة هي في حد ذاتها سبب من أسباب الإسلاموفوبيا، فهي تحمل رسالة إلى الغرب بأنه لا يمكن التعايش مع الإسلام، لأن الإسلام يرفض الآخر؛ ولذلك فإن رد الفعل الغربي يتجلبب بالمنطق الذي يقول: إذا كان الإسلام يرفض الآخر، فكيف يقبل بنا؟ وإذا كان من طبيعته ألّا يقبل بنا، فلماذا نقبل به؟.

من هنا فإن الهجرة المسيحية من الشرق لا يقتصر ضررها على تفكيك نسيج المجتمعات الوطنية، وعلى هدر وفقدان كفاءات ثقافية وعلمية واقتصادية كبيرة لا تعوّض، ولكنها تؤذي الحضور الإسلامي في الغرب وفي العالم وتنعكس سلبًا على العلاقات الإسلامية ـ المسيحية في المجتمعات الدولية: أوروبا ـ أميركا الشمالية ـ أستراليا ـ كندا.. إلخ، وهو الأمر الذي يعزز مشاعر رفض الإسلام والتمييز ضد المسلمين.

ثم إن الإسلاموفوبيا بمعنى كراهية الإسلام، عن جهل به، تُطلِق ردات فعل عكسية في الدول الإسلامية حيث يكون المسيحيون المشرقيون ضحاياها، وذلك لخطأ عدم التمييز بين الغرب والمسيحية، كما أشرنا سابقًا. ونتيجة لذلك تؤدي ردات الفعل هذه إلى مزيد من التطرف، ليس في الشرق فقط إنما في الغرب أيضًا. ومن شأن ذلك توجيه ضربات إضافية إلى العلاقات الإسلامية ـ المسيحية في الشرق وفي الغرب على حد سواء. من هنا لا يمكن، أو لعله لم يعد ممكنًا معالجة أي ظاهرة من هذه الظواهر الثلاث بالمفرّق، إن كلًّا منها مسبب للآخر ومكمّل له، وإن وقف نزيف الهجرة

المسيحية ـ وهو هدف إسلامي مسيحي مشترك ـ لا يتحقق من دون كبح جماح ظاهرة التطرف والغلو في المجتمعات الإسلامية.

هذا الترابط على وهنه، يُلقي على المسيحيين وعلى المسلمين العرب والشرقيين مسؤولية استثنائية لصيانة العلاقات الإسلامية ـ المسيحية، وتجنيبها التداعيات السلبية الخطيرة. فالمسيحيون مؤهلون لأن ينقلوا إلى العالم صورة بناءة عن تعايشهم مع المسلمين، ولكن حتى يتمكّنوا من القيام بذلك لا بد أن تكون أوضاعهم في مجتمعاتهم الوطنية أوضاعًا سليمة وبناءة، وهي لا تكون كذلك من دون أن ينعموا بحقوق المواطنة كاملة. والمسلمون مؤهلون لمساعدة مواطنيهم المسيحيين على أداء هذا الدور، ولكنهم لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك إذا لم تكن أوضاعهم في مجتمعاتهم الوطنية أوضاعًا سليمة وبناءة أيضًا. وهي لا تكون كذلك من دون استئصال ثقافة رفض الآخر وتعزيز ثقافة احترام الحريات الخاصة والعامة بما يحقق المواطنة الكاملة في الحقوق والواجبات.

تشكو مجتمعاتنا العربية من قلة في الديمقراطية ومن تخمة في التطرف والغلو. إنّ تغييب الديمقراطية والمشاركة يؤدي إلى إذكاء نار التعصب، ويزيد من الحساسيات وبخاصّةٍ في مجتمعات التنوع الديني والمذهبي والعنصري. إن حقوق المواطنة، بما فيها من حريات دينية تتعرض للانتهاك بغياب الديمقراطية، وبحضور التطرف والتعصب والغلو يذهب الانتهاك إلى حد محاولة إلغاء الآخر، أو إلغائه فعلًا، وهذا ما يحدث في العراق. ودفع المسيحيون العراقيون ثمنه الباهظ.

لقد أدّت المعاناة إلى الهجرة، ووصلت الهجرة إلى مستوى استنزافي بدأ يهدد الهوية الوطنية، ليس في العراق وحده، إنما في دول عربية أخرى. والمجتمعات العربية التي كانت تقوم على نسيج من خيوط متعددة متداخلة ومتشابكة، بدأت تشعر بخطر التفكك والتحلّل، الأمر الذي يكشف صدر العالم العربي أمام طعنات أعدائه الخارجيين، وفي مقدمتهم العدو الإسرائيلي ومشروعه التفتيتي الذي يستهدف المنطقة العربية بتمزيقها إلى دويلات طائفية ومذهبية وعنصرية متناقضة.

وكان وزير خارجية الفاتيكان السابق جيوفاني لاجولا Giovani Lagola قد أعلن في ندوة نظمتها مؤسسة سانت جيديو الكاثوليكية العالمية في روما، وشارك فيها باحثون من أوروبا والعالم العربي، «أن على الكنيسة أن تتخذ مواقف واضحة وجريئة لتأكيد الهوية المسيحية في الشرق الأوسط». فهل للمسيحية المشرقية هوية غير مشرقيتها وعروبتها؟ إن تعريف الهوية أمر معقّد ومتداخل ليس مكانه هنا، ولكن التبسيط في التعريف قد يوحي بربط المسيحية بالغرب، وهو إيحاء في غير مكانه، وبالتالي لا يخدم قضية الوجود المسيحي المشرقي.

كذلك وصف الكاردينال جان لويس توران Jean Louis Tauran رئيس مجلس الحوار بين الأديان في الفاتيكان، المسيحيين في الشرق بأنهم «مواطنون من الدرجة الثانية نتيجة للإسلام المتشدد»، وقال: «إن الكثير منهم أجبروا على البحث عن مكان أفضل للعيش». وهذا صحيح، ولكن لا بد من التساؤل هنا من هو مواطن الدرجة الأولى في ظل أنظمة تفتقر إلى الحدّ الأدنى من الديمقراطية واحترام كرامة الإنسان التي تعاني من تضييق عام على الحريات؟.. أليست المعاناة عامة وشاملة ولو بحدود مختلفة؟

في ضوء هذه الأجواء وجدتُ في مؤتمر روما مناسبة للتذكير بالأمور الآتية، وأرى مفيدًا هنا تجديدَ تأكيدها:

الأمر الأول: إن مسيحيي الشرق هم مواطنون أصيلون وأصليون، وليسوا طارئين على المنطقة. ومن ثَمَّ فهم كمسيحيين ليسوا جزءًا من الثقافة الغربية ولا من السياسة الأوروبية؛ بل إنهم من صناع الثقافة العربية ومن المؤتَمنين على لغتها.

الأمر الثاني: إن معاناة بعض مسيحيي الشرق هي وجه من وجوه معاناة تشمل كل شعوب المنطقة، وذلك نتيجة لأسباب عديدة، أهمها:

- اتساع العدوان الإسرائيلي بآثاره السلبية العميقة والواسعة.
- ضمور الممارسة الديمقراطية من حيث إنها الضامن الشرعي للحريات الفردية والجماعية.

- تعثر مشاريع التنمية البشرية والاقتصادية.
- ارتفاع موجة التطرف والتعصب وسوء توظيفها ضد جماعات دينية مسيحية وإسلامية أو عنصرية، كردية وأزيدية.

الأمر الثالث: إن الإسلاموفوبيا في الغرب (بمعنى: كراهية الإسلام عن جهل به) ولّدت ما يمكن وصفه بالمسيحانوفوبيا في الشرق، كردّ فعل على المظالم السياسية والإنسانية المتمثلة في الدعم الغربي لإسرائيل، والظاهرتان سلبيتان، إلا أن كلًّا منهما تستمد تبريراتها من الأخرى.

الأمر الرابع: إن المعالجة تكون بالمواطنة واحترام حقوق الإنسان والجماعات، كما تكون بتعزيز العلاقات الإسلامية ـ المسيحية على المستوى الوطني والقومي، وكذلك على المستوى العالمي.

ثالثًا: في دور المسلمين في تبديد القلق المسيحي:

تمرّ العلاقات الإسلامية المسيحية في فترة حرجة جدًّا. تتمثل، كما أشرنا سابقًا، في الهجرة المسيحية من العديد من الدول العربية والتي وصلت إلى حدود الاستنزاف، كما تتمثل في صعود التطرف الديني والعصبية المذهبية التي من أسوأ مظاهرها الاعتداءات على «قسيسين ورهبان لا يستكبرون»، وتدمير أديرة وإحراق كنائس «يذكر فيها اسم الله كثيرًا»، كما ورد في القرآن الكريم.

إن التصدي بالكلمة الطيبة لهذه الموجة الفاجرة من التطرف هو حق وواجب، حق للمجتمع، وواجب على كل مؤمن بدينه، حريص على وحدة مجتمعه وعلى أمنه وسلامته وخلاصه، سواء في لبنان أم في الدول العربية الأخرى.

وفي زمن ترتفع فيه شعارات الغلو وتَلقى هذه الشعارات هوىً ورواجًا واستثمارًا سياسيًّا، تبقى «الكلمة الطيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء».

يؤدي المسلم (والمسلمة) الصلوات الخمس يوميًّا، ويبلغ عدد الركعات المفروضة في هذه الصلوات ١٧ ركعة على الأقل، وفي كل ركعة يقرأ المصلي (والمصلية) سورة الفاتحة، وفيها قول الله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

فمن هم الذين أنعم الله عليهم؟

ومن هم المغضوب عليهم؟

ومن هم الضالون؟

من الواضح في سياق السورة الكريمة أن الذين أنعم الله عليهم هم الذين هداهم الله إلى صراطه المستقيم فالتزموا حدوده، ومن ثَمَّ يكون المغضوب عليهم هم الذين خرجوا على الصراط المستقيم وفرطوا بحدود الله؛ أما الضالون فهم الذين تشددوا وتطرفوا وغالوا حتى ضلوا، وخرجوا عن الصراط المستقيم وتجاوزوا بذلك حدود الله، وفي هذا تفسير لقول رسول الله ﷺ: **«إن هذا الدين (الإسلام) يُسْرٌ ولن يُشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه»**.

وهذا يعني: أن المسرفين في التشدد والتنطح والغلو، هم الذين يتعدون حدود الله ويخرجون بذلك عن الصراط المستقيم فيضلّون السبيل؛ أما الذين فرّطوا بحدود الله وبتعاليمه وأضاعوها تنكرًا وإنكارًا لها، وعن سابق تصور وتصميم، فهم المغضوب عليهم.

إن الحكمة من وجوب قراءة سورة الفاتحة في كل ركعة، من كل صلاة، وكل يوم، هي لتذكير المؤمن بوجوب الالتزام بالصراط المستقيم، وبعدم الخروج منه حتى لا يكون من الضالين، وبعدم الخروج عليه حتى لا يكون من المغضوب عليهم، غير أن الإسلام في القرن الواحد والعشرين يعاني من استقواء المنشقّين من المغضوب عليهم ومن الضالين، على جماعة المؤمنين المتمسكين بالصراط المستقيم.

لقد وردت كلمة الاستقامة ومشتقاتها ٤٦ مرة في ٣٤ سورة من سور القرآن الكريم.

والاستقامة التي يدعو إليها الإسلام مرتبطة بالإيمان ولاحقة له، لأنها تعبّر عن الالتزام بالقيم والمبادئ التي يدعو إليها. فالقرآن الكريم يقول في الآية السابعة من سورة التوبة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾. فالإيمان هو المدخل إلى الاستقامة، والاستقامة هي ثمرة الإيمان، والخروج عن هذا الطريق فيه ضلال، والخروج عليه فيه غضب من الله.

ورغم أن جماعة المؤمنين تشكل الأكثرية الكبرى، فإن للمغالين صوتًا أكثر ارتفاعًا، وللمتنكرين دورًا أشد سلبية، وهاتان الجماعتان تقوّلان الإسلام ما لم يقله بشأن نفسه، وبشأن الآخر، وهذا يسيء إلى صورة الإسلام، وإلى علاقاته مع الآخر غير المسلم.. وإلى علاقاته مع المسلم نفسه من مذهب آخر، ومن المذهب ذاته! وفي حديث صحيح لرسول الله محمد ﷺ يقول فيه: «**لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه**». ويتكامل ذلك مع حديث آخر للنبي ردًّا على سؤال: من هو المسلم؟ يقول فيه: «**المسلم من سلم الناس من لسانه ويده**».

من هنا، فإن العودة إلى روح الإسلام السمح وليس المتسامح ـ تشكل المدخل الصحيح لمعالجة أزمة الثقة التي اهتزت وربت في العلاقات الإسلامية ـ المسيحية. إذ إن هذه العودة الإسلامية تتكامل مع عودة إلى روح المسيحية أيضًا، تلك التي حددها المجمع الفاتيكاني الثاني في العام ١٩٦٥م.

فقد أعلن المجمع ولأول مرة، ليس فقط احترامه للمسلمين لأنهم يقولون بإله واحد ويحترمون المسيح وأمه، ويؤمنون به نبيًّا، ولكنه أعلن أيضًا «أن الخلافات مع المسلمين تشكل خطيئة للإيمان بالله الواحد الذي خلق الناس جميعًا ودعاهم إلى الخلاص والسعادة».

لقد أرسى مجلس الأساقفة في المجمع الثاني القاعدة الأساسية الآتية:

«تنظر الكنيسة بتقدير إلى المسلمين الذين يعبدون الله الواحد، الحي القيوم، الرحمان القدير، الذي خلق السماء والأرض، وكلّم الناس؛ إنهم يسعون بكل نفوسهم إلى التسليم بأحكام الله، وإن خفيت مقاصده، كما سلّم لله إبراهيم الذي يفخر الدين الإسلامي بالانتساب إليه، وإنهم، مع كونهم لا

يعترفون بيسوع إلٰهًا، إلا أنهم يكرمونه نبيًّا، ويكرمون أمه العذراء مريم، ويقدرونها تقديرًا عاليًا. ثم إنهم ينتظرون يوم الدين الذي يجازي الله فيه جميع الناس بعدما يبعثهم أحياء، من أجل هذا يقدرون الحياة الأبدية، ويعبدون الله بالصلاة والصدقة والصوم خصوصًا».

صحيح إن المسلمين والمسيحيين يتبادلون مشاعر هذه الأخوة ويعيشونها في لبنان بخاصة وفي الشرق بعامة، حتى قبل المجمع الفاتيكان الثاني، إلا أن المجمع أكدّها لاهوتيًّا، بحيث تكرست الأخوة الوطنية في الأخوة بالإيمان بالله الواحد.

ولأن هذه الأخوة ليست مجرد شعار، لا بد من ترجمتها في السلوك الفردي والجماعي، ومن تجسيدها في الحياة العامة.

من هنا نفهم تأكيد الإرشاد الرسولي (الفقرة ٢٥ ـ ص٢٠) حق المسيحيين وواجبهم في الوقت ذاته، في «المشاركة التامة في حياة الوطن من خلال العمل على بناء أوطانهم»، وأنه «ينبغي أن يتمتعوا بمواطنة كاملة لا أن يعاملوا كمواطنين، أو مؤمنين من درجة ثانية».

خاتمة

يستطيع المسلم في الشرق، وخصوصًا في لبنان، أن يستغني عن المسيحي في ممارسة شعائره الدينية، وفي توطيد علاقته الروحية بالله؛ ويستطيع المسيحي أن يستغني عن المسلم بالقدر نفسه، وربما أكثر؛ ولكن لا يستطيع أي منهما أن يستغني عن الآخر في حياته. إن الحياة كما يقول مارتن بوبر ليست سوى اللقاء مع الآخر.

تحتاج العلاقة الإنسانية، حتى تقوم على قاعدة الثقة، إلى رعاية دائمة، وهي عملية شائكة ومعقدة لأنها تتعامل مع مشاعر وأحاسيس، ومع آمال وأمانٍ. وعلى العكس من ذلك فإن تغذية الخوف واللاثقة عملية سريعة وبسيطة للغاية، يتراوح سلاحها بين أتباع نهج الغطرسة والاستعلاء والفوقية، وأسلوب التجاوز والتجاهل.

لا يتحقق الاطمئنان بالدعوة إليه، ولا تقوم الثقة بالإعراب عن حسن النوايا؛ فالاطمئنان والثقة والمحبة هي كالثمار الصنوبرية تحتاج إلى وقت طويل من العمل والجهد ومن الرعاية والعناية. من أجل ذلك، فإذا كنا غير متفقين حول شؤون ما بعد وفاتنا، فلا يوجد أي مانع يحول دون أن نتفق حول شؤون حياتنا ومعاشنا. بالنسبة إلينا معشر المسلمين إن القضية محسومة شرعًا، ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ٦]، ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، و﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]. إذًا ليست هناك مشكلة عقدية، والأوْلى ألّا تكون هناك مشكلة تعايشية، إنه لخطأ فادح أن نحوّل اختلافنا العقدي إلى خلاف حياتي، فالاختلاف ليس خلافًا. يمكن للاختلاف أن يقوم مع الاحترام والتفهم، ولكن الخلاف لا يولّد سوى البغضاء ورفض الآخر، نحن نكون معًا أو لا نكون. واللقاء لا يكون أساسًا بين حقيقتين متشابهتين، اللقاء يكون بين مختلفين. والحياة تتولّد وتتوالد باللقاء، وما التلقيح في الطبيعة فكرًا أو جسدًا، لاهوتًا أو ناسوتًا، سوى نتيجة من نتائج لقاء التكامل والحب بين مختلفين.

المهم أن نعرف ماذا نريد أن نحقق في حواراتنا؟ وإلى أين نتجه في حياتنا الإسلامية ـ المسيحية المشتركة؟ إذ إنه لا توجد رياح مناسبة لمن لا يعرف إلى أين يتجه.